المحاضرة رقم (5):

المدح في الشعر العربي القديم

جاء جذر (م،د،ح) في كتاب القاموس لفيروزآبادي : مَدَحَه كَمَنَعَه مَدحاً ومِدحَةً : أحسَنَ الثَّناءَ عليه....والمَديحُ والأُمدُوحَةُ ما يُمدَحُ به، جمعُه : مَدائِح، وأَماديح[1].

وذكر ابن منظور في اللسان : المَدح نقيض الهجاء، وهو حُسن الثَّناء، وفي اصطلاح أهل الأدب، المدحُ هو وصف الشَّاعر غيرَه بالجميل والفضائل وثَناؤه عليه[2].

1- نشأة المدح:

قيل إن المديح لم يكن في أول وهلته " من بين أبواب الشّعر العربي ... وأكبر الظّنّ أنّه تأخّر في الوجود عن كثير من فنون الشّعر التي يتغنّى فيها الشاعر بعاطفة قديمة شخصيّة"[3]، ولعل في قوله تأخر في الوجود لا يعني البتة أنه لم يظهر، بل كانت له نتف متوزعة بين ثنايا القصائد القديمة،منذ الجاهلية إلى عصور الأدب المتقدمة.

2- تطور مضامين قصيدة المديح:

أ- **في الجاهلية**: إننا لو تصفحنا المدونة الشعرية الجاهلية، لوجدنا أنّ شعر هذه الحقبة يحفل بالكثير من النّماذج المدحيّة، والتي يعبر فيها الشّعراء عن عاطفة إعجاب إزاء ممدوحيهم، ولعل أيضا جل معاني المديح مستمدة من واقعهم الجاهلي "ومن بيئة العرب الصحراوية ومجتمعهم الذي يعتمد على الفروسية،

---

1 - القاموس المحيط، مادة : مدح

2 - لسان العرب، مادة : مدح

3 - أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، المحقق, الناشر, - نهضة مصر. الطبعة, 1996م، ص 177:

فكان الشعراء يمدحون بالجود والعزة والشجاعة والإباء والفتك بالأعداء، وإكرام الضيف، ورعاية حقوق الجار وصفاء النسب"[4] ؛ ما يعني أن المديح ينصرف إلى القيم الإنسانية والخلقية التي تجعل من الرجل إنسانا كالعقل والعفة والعدل والشجاعة[5].كما امتدح الشاعر زهير بن أبي سلمى رجلي السلم والإصلاح؛ الحارث بن عوف، وهرم بن سنان، فقال فيهما:

تداركتُما عَبساً وذُبيانَ بَعدَ ما تَفانَوا ودَقُّوا بَينَهم عِطرَ مَنشِمِ

فأصبَحَ يَجري فيهمُ مِن تِلادِكُم مَغانِمُ شَتّى مِن إفال المُزَنَّم

يُنَجِّمُها قومٌ لِقَومٍ غَرامَةً ولَم يُهريقُوا بينَهم مِلءَ مِحجَمِ[6]

ب-**في عصر صدر الإسلام:** تبدو قصيدة المديح في هذا العصر متميزة بالنظر إلى الرسالة الدينية الجديدة، والتي منحت القيم والفضائل توجها آخر، حيث راح الشعراء يمتدحون الدين الجديد، والرسالة الجديدة، كم صبوا مديحهم على النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهجاء المشركين، يقولبن مالك بن كعب :

سَائِلْ قريشاً غداةَ السَّفْحِ مِنْ أُحُدِ ماذا لَقِينا وما لاقوا من الهَرَبِ

كنّا الأُسُودَ وكانوا النُّمورَ إذ زَحَفُوا ما إنْ نراقِبْ مِنْ آلٍ ولا نَسَبِ

كَمْ تَرَكْنا بِها مِنْ سَيِّدٍ بَطَلٍ حامي الذِمارِ كريمِ الجَدّ والحَسبِ

فِينا الرسُولُ شِهابٌ ثُمَّ يَتْبَعُهُ نُورٌ مُضيءٌ لَهُ فَضْلٌ على الشُّهُبِ

الحَقُّ مَنْطِقُهُ والعَدْل سِيرَتُهُ فَمَنْ يُجبْهُ إليهِ يَنْجُ مِنْ تَبَبِ

---

4 - سراج الدين محمد :المديح في الشعر العربي، سلسلة المبدعون، دار الراتب الجامعية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص، 06.

5 - ينظر:قدامة بن جعفر:نقد الشعر :تحقيق :كمال الشيخ، مكتبة الخانجي،ط3، 1979، ص، 59

6 - زهير بن أبي سلمى:الديوان :تحقيق :علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003 ، ص106 :

ج- **في العصرالأموي**: امتزج المديح في هذا العصر بصبغة سياسية، لما فيه من صراعات وتوترات،حيث نشأت الأحزاب، وتبلورت المذاهب، وانحاز كل فريق إلى حزبه يمدحه، ويمجده، ويبث فيه الفضائل والأخلاق والحق والعدل.(انظر محاضرة الشعر السياسي في العصر الأموي).

د- في العصرالعباسي: في هذا العصر انفتحت الدولة العباسية على الكثير من الثقافات، وامتزجت فيه الأفكار والرؤى بين الثقافة المحلية العربية والثقافة الوافدة، فنشأت ثقافة جديدة بمخرجات جديدة، مما يحتم تغييرا في منحى المديح في هذا العصر ،كأن يجتمع في موضوع المديح السياسة والدين،كقول أبي العتاهية

أتته القيادة منقادة إليه تجـــــــــــــــــرر أذيالها

ولم تكن تصلح إّلا له ولم يكن يصلح إّلا لها

ولو راغها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها[7]

هذه وعلى عجالة أهم التطورات التي عرفتها قصيدة المديح عبرعصور الشعر العربي، وطبيعي أن تستجيب قصيدة المديح إلى المؤثرات السياسية والدينية والثقافية لكل عصر، وأن تمتدح بما يناسب ذوق العصر ومزاجه

7 - أبو العتاهية: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، ص،.375